من صميم الحياة . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

هذه قصة شاب مدرس في ثانوية من ثانويات البنات في بلد من بلاد الله حديث السن لم يجاوز إلى الآن الرابعة والعشرين ، معتزل متفرد عاكف على كتبه ودفاتره ، لا يخالط الناس ، وليس ممن يبتغي الظهور فيهم والحظوة لديهم ، فلا يحاول أحد من القراء أن يبحث عنه أو يسعى إلى معرفته ، وليكتفوا من قصته التي قصها عليّ بمكان العبرة منها ، إذا كان قد بقي في القارئين من يفتش على العبرة ، أو يسعى إلى الاعتبار . . .

***

وهذا الشاب ابن صديق من أدنى أصدقائي إلى قلبي ، وكان في صباه تلميذاً لي ، وكان من أذكى الطلاب قلباً ، وأطهرهم نفساً ، وأمتنهم خلقاً ، وأتقاهم لله في سرّ وفي علن ، وكان على صغره جاداً بعيداً عن المزاح ، مجتنباً الهزل ، باراً بأمه وأبيه ، لا يعرف إلا مدرسته وبيته ، لم يُرَ قط واقفاً في طريق ، أو ماشياً إلى لهو ، وثبت على ذلك حتى شبّ وأكمل الدراسة ، وفارق المدرسة ، وهو لم يدخل قهوة ولا سينما ، ولم يصاحب أحداً أبداً ، ولم يجالس امرأة غير أمه ولم يكلمها . .

وكان لذلك بمنزلة الأخ الأصغر مني ، أحبه محبة الابن ، ويجلني إجلال الوالد ، وكان ينفض إليّ دخيلته ، ويكشف لي سريرته ، وكان من مزاياه أنه صادق اللهجة ، لم أجرّب عليه في هذه المدة الطويلة كذباً قط . . .

***

وانقطع عني مدة طويلة ، ثم رأيته فأخبرني أن والديه قد توفيا بالتيفوئيد في شهر واحد ، وأنه غدا وحيداً فاحترف التعليم ، وبعثت به الوزارة ، لما تعلم من عظم أخلاقه ، إلى مدرسة ثانوية للبنات ، فثار وأبى وطلب نقله إلى غيرها من مدارس البنين ، فما زالوا به يداورونه ويقنعونه بأنه إن كان معلمَ البنات رجل مثله ، فذلك خيرٌ لهن من أن يدخل عليهن فاسق خبيث ، وإن قبوله التدريس في هذه المدرسة قربة إلى الله ، تخدع المسكين وقبل !

قال : وبتّ ليلة افتتاح المدرسة بليلة نابغيّة لم يتطبق فيها جفناي ، من الفكر والوساوس والمخاوف ، فلما أصبح الصباح ذهبت أقدم رجلا وأؤخر أخرى ، حتى دخلت المدرسة ، فما راعني عند الباب إلا أن فتاتين كاملتي الأنوثة ليستا بالصغيرتين ولا القاصرتين قد دخلتا أمامي ، فلما صارتا من داخل ألقتا عنهما الخمار ، فعادتا كأنهما في دارهما ، وتلفتّ حولي فإذا ملء الساحة فتيات نواهد نواضج الأجساد ، قد حسرن ورحن يلعبن ويمشين وهنّ بالثياب الحريرية الزاهية ، شعورهن مهدّلات على الأكتاف ، والسواعد عاريات والسيقان ، فأحسست كأنما قد صبّ عليّ دلو من الماء الحامي ، فاحترقت منه أعصابي ، فاستدرت راجعاً ونفضت يدي من الوظيفة ، وقلت : الرزق على الله !

وقصدت بيتي فما وسعني والله البيت ، ووسوس إليّ (لا أكتمك) الشيطان ، وزين لي تلك المتعة بعاشرة أولئك الفتيات ، والحياة بينهن ، فاستعذت بالله ، وأعرضت عنه ، وذهبت أفتش عن عمل غير هذا ، فسدّت في وجهي الأبواب إلا هذا الباب ، ولاحقتني الوزارة وإدارة المدرسة حتى عدت مكرهاً . .

وأنا رجل رضت نفسي على العفاف ، وأخذتها بضروب الرياضات حتى سكنت شرّتها ، ولكنها مع ذلك كانت تثور بي كلما سبقت عيني وأنا غافل إلى فتاة في الشارع كاشفة ، أو سمعت أذني حديثاً من أحاديث الشبان سقط إليّ وأنا لا أطلبه ، أو قرأت (وقلما أقرأ) قصة خليعة ، أو نظرت (ونادر أن أنظر) مجلة من هذه المجلات الداعرة الخبيثة وما المرأة التي يفتش عنها الشبان ويتحدثون عنها إلا هذه النَّصف التي تصلح ما أبلى منها الدهر بالثياب والأصباغ وما عند العطار ، والتي تقاذفتها الأيدي حتى صارت كالقصن الذاوي وكالثوب الخلَق ، فما بالك بشاب كتب عليه أن يعاشر النهار كله فتيات كزهرة الفلّ ، أو كالغلالة الجديدة ، لم تمسسهن يد بشر ، ولم يعرفن من تجارب الحياة ما يتقين به شباكها ، ويطلب منه أن يكون عفيفاً شريفاً ، وأن يكنّ هن أيضاً عفيفات شريفات ، وله في نفوسهن مثل الذي لهن في نفسه ؟

يا أستاذ ! إن الخطر أشد مما تتوهمون أنتم معشر الكتاب المعتزلين في بيوتهم أو في أبراجهم العاجية ، كما يقولون عن أنفسهم ، الخطر أشد بكثير ... شباب وشابات ، يُصبي كلاً منهما أن يشم ريح الآخر من مسيرة فرسخ ، يجتمعون على دروس الأدب وقراءة أشعار الغزل ... تصور (يا أستاذ) المدرس باق على طالباته حديث ولاّدة وابن زيدون ، وإنها كتبت كما رووا (كذباً أو صدقاً) على حاشية ثوبها :

أمكن عاشق من حسن خدي وأمنح قبلتي من يشتهيها

وعفى يشرح لهن ذلك ويفسره لهن .. حالة فظيعة جداً يا أستاذ ... ولو كن كبيرات مسنات ، أو كن مستورات محجبات ، أو لو كن صائمات مصليات يخفن الله ، لهان الأمر ، ولكنهم يجتمعون بهن على سفور وحسور وتكشف ، وتنطلق البنت حرة تزور معلمها في داره ، وتمشي معه إن دعاها إلى السينما أو المتنزّه ، كذلك يرى الآباء اليوم بناتهم فلا ينكرون ذلك عليهم .. !

أنا لا أقول إن الآباء كلهم لا يهمهم أعراض بناتهم ، وأن كل أب قرنان ، معاذ الله أن أقول ذلك ، ولكن هؤلاء الآباء قوم مغفلون ، أعمى أبصارهم بريق الحضارة الغربية فحسبوا كل شيء يجيء من الغرب هو خير وأعظم أجراً ، ولو كان ذهاب الأعراض والأديان والأبدان ! إن هؤلاء كالنعامة يلحقها الصياد فتفر منه حتى إذا عجزت أغمضت عينيها ودسّت رأسها في التراب لظنها أنها إذا لم تبصر الصياد ، فإن الصياد لا يراها ! إن هذا الأب يحسب أن كل رجل ينظر إلى ابنته بعينه هو ، وطبيعي منه ألا ينظر هو إليها بعين الشهوة ، فلذلك يطلقها في الشارع ، ويبعث بها إلى المدرسة على شكل يفتن العابد ، ويحرك الشيخ الفاني .. !

* * *

دخلت يا سيدي ودرست ، وكنت أغض بصري ما استطعت وأحافظ على وقاري ، ولا أنظر في وجوه الطالبات إلا عابساً ، ولا أقول كلمة في غير الدرس المقرر ، وكنت مع ذلك أداري من أثرهن في أعصابي مثل شفرة السيف الحديد ، وإذا قرع الجرس خرجت قبلهن مهرولا حتى لا أماشيهن ولا أدنو منهن ، فذهبت مسرعاً إلى داري أصلي وأسأل الله أن يصرف عني هذه المحنة ، وأن يجعل رزقي في غير هذا المكان ، وكنت أصوم وأقلل الطعام لأطفئ هذه النار ، فإذا مشيت إلى الفصل وسمعت كلامهن ، وسبقت عيني إلى بعض ما يبدين من أعضائهن وزينتهن زادت ضراماً واشتعالا .. !

وكان فيهن طالبة هي ... لا .. لست أصفها ولا ينفعك وصفها ، وحسبك أن تعلم أنها زكية ومتقدمة في رفيقاتها ، وأنها من أسرة من أنبل الأسر ، وأنها فوق ذلك جميلة جداً . جداً . إنها تمثال ، هل رأيت مرة تماثيل الجمال والفتنة ... ؟ وكانت كلما نظرتْ إليّ قرأت في عينيها كتاباً مفتوحاً ، رسالة صريحة لي أنا وحدي ، وأحسست منها بمثل شرارات الكهرباء تخرق قلبي ... فكنت أزداد عبوساً وإعراضاً ، فلا يردها عبوسي ولا يثنيها إعراضي ، وأسرعت مرة ورائي وأنا خارج وهي تناديني : « سؤال يا أستاذ » ... ولها في صوتها رنّة ... يا لطيف . . ! فوقفت لها فجعلتْ تدنو مني حتى شممت كأس الأمس ... الأمس ما ذا ؟ لا أجد والله شيئاً أشبهها به ، لأنه ليس في الدنيا شيء آخر له مثل هذا التأثير .. فهربت منها وأسرعت إلى الدار ، وحرصت على ألا أدعها أو أدعَ غيرها تفعل مثل هذا !

وكنت أكتب الدرس في كراس وأدفعه إليهن لينسخنه ، فهو يدور عليهن ، فلما كانت نوبتها عاد إليّ الكراس وفيه هذه الأبيات لعلي بن الجهم :

نطق الهوى بجوى هوالحق ... وملكتني فليهنك الرق

رفقاً بقلبي يا معذبه ... رفقاً وليس لظالم رفق

وإذا رأيتك لا تكلمني . ضاقت عليّ الأرض والأفق

مكتوبة بخطها منقولة من (المنتخب)، فمحوتها وكتمت الأمر ، وعقدت العزم عقداً مبرماً على ترك التدريس ، وخرجت من الفصل بهذه العزيمة ، وكان في الساحة تلميذات فرقة أخرى في درس الرياضة ، وقد اصطففن بالشّلحات ، كاشفات الأخاذ والأذرع ، راسخات النهود ، يقفن كذلك بين الرجال (والملعون كلهم رجال) ... فكبر رأسي وأسرعت إلى الشارع ، وقد حلفت ألا أعود ولو متّ جوعاً ، وبعثت بكتاب الاستقالة !

ومرت أيام وكنت وحدى فى الدار — وأنا وحدى دائماً ليس لى زوجة ولا قريب — فإذا الباب يقرع ، فقمت ففتحت وإذا بها تدخل علىّ ، وتغلق الباب وراءها ، وترفع الغشاء عن وجهها ، وتلقى المعطف عن منكبيها ، وكأن تحت جلدها الأبيض المورّد الناعم أنهاراً من الدماء تجيش بالرغبة ... مثل الشلالات المتحدرة ، وجلست أمامى كما تجلس أمام زوجها . . وقعدت تحدثنى تطلب درساً خصوصياً ، وعيناها تحدثانى تطلبان غير الدرس ... ولست يا أستاذى رجل سوء ولا أليف دعارة ، ولكنى رجل على كل حال ... فلما رأيتها فى دارى ... وتحت يدى ... والباب مغلق ... وهى تريد ... ملكنى الشيطان ... ورأيت الدنيا تدور بى ، ولما حاولت أن أتكلم اختنق صوتى ثم خرج وفيه بحة غريبة كأنى أسمع معها صوت إنسان آخر غيرى ، وهممت يا أستاذ ... ولكن صوت الدين رنّ فى أذنى ، ينادى لآخر مرة كما يصرخ الغريق آخر صرخاته ... فاستجبت له ... ولو أعرضت عنه لحظة لضاعت هذه الفرصة إلى الأبد ، ولخسرت أنا والبنت الدنيا والآخرة من أجل لذة لحظة واحدة ... ولم أتردد بل قلت لها بصوت بارد كالثلج ، قاطع كالسيف ، خشن كالمبرد : « يا آنسة ، أنا آسف ، إن هذه الزيارة لا تليق بطالبة شريفة ، فاخرجى حالا ! » ... وفتحت لها الباب وأغلقته خلفها ، وتم ذلك كله فى دقيقة !

ولما خرجتْ ندمت ... نعم ندمت ... وعاد الشيطان يوسوس لى ، وضاق بى المنزل حتى كأنى فيه محبوس فى صندوق مقفل ، ولم أعد أدرى ما ذا أصنع ، وأحسست أنى أضمت كنزاً وقع إلىّ ، وتقلبت غريزتى ، فأخفت صوتها صوت الدين والعقل ، وأحسست توتراً فى أعصابى ، حتى وجدت الرغبة فى أن أعضّ يدى بأسنانى ، أو أضرب رأسى بالجدار ، وعدت أتمثل حركاتها ونظراتها ... فأراها أجل مما هى عليه ، وأحس بها فى نفسى ، فكأنى لا أزال أشم عطرها ، وأرى جمالها ، بل لقد مددت يدى لأمسك بها ، فإذا أنا أقبض على الهواء ، وخيّل لى الشيطان أن هذه البنت لم تعد تستطيع البصر بعد أن أذكى هذا النظام المدرسى نار غريزتها ، وأنها ستمنح هذه الـ ... هذه النعمة رجلا غيرى ... فصرت كالمجنون حقاً ، وحاولت أن أقرأ ففتحت كتاباً فلم أبصر فيه شيئاً إلا صورتها ، وأردت الخروج فرأيتنى أنفر من لقاء أىّ من أصحابى كان ولا أريد إلا إياها ، وحسدت إخوانى المدرسين الذين لم يتربوا مثل تربيتى الصالحة ، فتمنعهم من الانطلاق فى هذه اللذائذ انطلاق الذئب فى لحم القطيع الطرىّ !

والعفو يا أستاذ إذا صدقت فى تصوير ما وجدت ، فأنت أستاذى أشكر إليك ، وأنت الرجل الأديب قبل أن تكون الشيخ والقاضى ، فقل الآن ما ذا أصنع ؟ إنى تركت التدريس واشتغلت بغيره ، ولكنى لم أستطع أن أنساها ، ولو أنا أردت وصالها لقدرت عليه ولكنى لا أريد ، فما ذا أصنع يا أستاذ ؟ لقد حاولت الزواج ، فرأيت الأب الذى لا يكاد يمنع ابنته حراماً لا يمنحها حلالا إلا بمهر وتكاليف يستحيل دفعها على مثلى ، فأيست من الزواج ، فما ذا أصنع ؟

* * *

ما ذا يصنع يا أيها القراء ؟ قولوا ، فإنى لم أجد والله ما أقول!

(دمشق) على الطنطاوى

الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى

تقدم موسمها الكبير ابتداء من الخميس ٣١ أكتوبر ٩٤٦

بدار الأوبرا الملكية

برواية

حواء الخالدة

للكاتب الكبير محمود تيمور بك

إخراج الأستاذ زكى طليمات

المدير الفنى

ويشترك فى التمثيل :

أحمد علام — فردوس حسن — فؤاد شفيق

نجم إبراهيم — أحمد شريف — قاسم قاسم